البلاغة والأسلوبية

ائتلاف لا اختلاف

أ. د. سعد أبو الرضا

مفتتح

الأسلوبية أحد مناهج النقد الأدبي الحديث، ويراها بعض المفكرين علماً مستقلاً برغم صلته الوثيقة بالنقد الأدبي، والبلاغة شريك فاعل في الدرس النقدي والأسلوبي، وهذا مما يجمع بين البلاغة والأسلوبية والنقد الأدبي، وهو في الوقت نفسه ما يمكن أن يوثق الصلة بينهم، فهم جميعها يقومون بفحص مادة واحدة هي الأدب، برغم ما يمكن أن يكون بينهم من اختلاف في طبيعة هذا الفحص ومستواه، وذلك في الوقت نفسه المجال الذي يريد هذا البحث أن يكشف توثق الاتصال بينهم فيه، وهذه العلوم الثلاثة: البلاغة والأسلوبية والنقد الأدبي في الوقت نفسه مما يسهم في إثراء ثقافة الناقد الأدبي والأديب معاً، ويرفع من كفاءتهما المعرفية، ويعين المتلقي بصفة عامة على تلقيها، وحسن استثمارها.

وتتميز البلاغة العربية برصيد تراثي في صلاتها بالكشف عن إعجاز القرآن الكريم وبلاغة الحديث النبوي الشريف، وتوظيف فنونها في هذه المجالات، وذلك مما يدعم مكانتها العلمية، برغم أهمية إفادتها من العلوم الإنسانية اليوم التي يمكن أن ترهف وسائلها المعرفية في هذا المجال، وفي تحليل النصوص المختلفة التي تنتمي إلى أجناس الأدب المختلفة، وذلك مطمح يصبو إليه هذا البحث متعاوناً مع غيره من البحوث التي تتغيا هذا الطموح.

أوجه المباينة المعرفية بينهما:

وقد حاول بعض الباحثين تعداد أوجه المباينة المعرفية – في نظرهم – بين البلاغة والأسلوبية، منهم: د. عبد السلام المسدي في كتابه "الأسلوبية والأسلوب"، و د. صلاح فضل في كتابه "علم الأسلوب"، و د. سعد مصلوح في بحثه "مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية" وغيرهم، ويمكن أن نشير إلي هذه المباينات والاختلافات، ومناقشة أبعادها، لبيان أوجه النظر فيها، ومنها:

١- اعتماد البلاغة علي الشاهد والمثال المجتزأ والجملة المفردة، بينما الأسلوبية غالباً ما تعالج نصا أو خطابا(١)، وهذا حق، لكنه يمثل الفارق بين علم نشأ وتكون في القرون الوسطي، وعلم نشأ وتكون في القرن العشرين مفيداً من تقدم المناهج الحديثة والعلوم الإنسانية. ومن ثم فتوظيف البلاغة في معالجة النص والخطاب منوط اليوم بمن يبحث في البلاغة، وهذا الفارق مما يحفز المهتمين بها اليوم علي الإفادة منه في التعامل معها، مع المحافظة علي أصولها الملائمة دون تصور نضجها في غير عصرها.

---

(١) انظر د. سعد مصلوح بحثه: مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، النادي الأدبي الثقافي بجدة (قراءة جديدة لتراثنا النقدي) المجلد الآخر، العدد ٥٩: أبحاث ومناقشات الندوة التي أقيمت في الفترة من ٩ :١٥/ ٤/ ١٤٠٩هـ الموافق من ١٩: ٢٤/ ١١/ ١٩٨٨م صـ٨٥٧.
وكذلك انظر د. صلاح فضل: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ط٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥م، صـ١٣٩.

٢- ويضاف إلي ما سبق أنه غالبا ما تتجه البلاغة العربية وجهة اصطفائية فيما تختاره من النماذج مادة لفحصها، فتختار الجيد والمتميز من الكلام، بينما الأسلوبية تهتم بكل النصوص، وهذه ميزة محايدة لأنها تتعلق بطبيعة مجالات البحث بالنسبة لكل منهما: البلاغة والأسلوبية، وبرغم ذلك فقد يتفقان في طبيعة التقويم والحكم، وإن اختلفت درجات ذلك.

٣- طبيعة الاختلاف بين الوجود والماهية، بمعني أن الفن البلاغي قد كان هو الأساس الذي ينطلق منه الدرس البلاغي، وهذا الفن قد يكون في نظر المخالفين ذا وجود مطلق خارج النص، بينما الخاصية الأسلوبية لا يعتد بها إلا إذا كانت داخل النص (١).

وأتصور أن هذا المشكل قد يمكن حله عن طريق التعامل مع النص نفسه أيضا قبل التعامل مع الفن البلاغي، فلا نعتد بهذا الأخير إلا إذا كان موجوداً في النص مع مراعاة نسبة تكراره أو عدمها، وقد يفيد الباحث حينئذ من الدراسة الإحصائية في تفسير الظاهرة الأدبية البلاغية في بناء النص وتحليله، ونحن بذلك نتعامل مع الكلام

---

(١) انظر: قراءة جديدة لتراثنا النقدي ص٨٥٧/ ٢ مرجع سابق وكذلك انظر: علم الأسلوب ص١٤٠ (مرجع سابق) وكذلك انظر د. عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتابة، سنة ١٩٨٢م، تونس، ص٥٤.

وكذلك انظر: د. لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ط ١٩٩٧م ص٩٣.

والأداء كما يتعامل الفحص اللساني والأسلوبي بصفة عامة، وهكذا يمكن أن تفيد الدراسات البلاغية من هذا المنحى.

٤- ويتصل بما سبق كون الأسلوبية تبحث في تجليات الظواهر الأسلوبية بصفة عامة، في أي جنس من أجناس الكلام أو أي مستوى من مستوياته، بينما البلاغة تهتم بالإمكانات التعبيرية في اللغة، متمثلة في الظواهر الأدبية التي هي في الوقت نفسه أحد اهتمامات الأسلوبية وليست كل اهتماماتها(١)، وربما كان هذا ملمحا محايداً، فلا هو ميزة للبلاغة العربية ولا هو عيب فيها، وإنما هو كاشف عن طبيعة مجالها.

٥- وامتداداً لما سبق فهناك من يرى اختلاف البلاغة والأسلوبية في غايتيهما، فالبلاغة غايتها تشريعية تعليمية عملية، بينما غاية الأسلوبية بحثية تشخيصية وصفية(٢)، من ثم فالبلاغة في نظر هؤلاء معيارية لا وصفية، ومنطقية لا لغوية (٣)، وهذه وجهة نظر تعتمد علي تفسير نشأة البلاغة وكونها علما قوامه التقعيد والتقنين وضبط الحدود، كما ظهرت في القسم الثالث من "مفتاح العلوم" للسكاكي

---

(١) انظر د. سعد مصلوح، مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية (مرجع سابق) صـ٨٥/ ٢.

(٢) انظر قراءة جديدة لتراثنا النقدي (مرجع سابق) جـ٢ صـ٨٥٩، وكذلك انظر علم الأسلوب صـ ١٤٠، وكذلك انظر د. عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، سنة ١٩٨٢م، تونس، صـ٥٤.

(٣) علم الأسلوب (مرجع سابق) صـ ١٣٩.

(ت سنة٦٢٦هـ) وكما أخذها عنه الخطيب القزويني (ت سنة٧٣٩هـ) في الإيضاح وغيره، وهي الصيغة التي شغلت الباحثين تلخيصا وشرحا منذ ذلك الوقت حتى مطالع العصر الحديث، وحبذا لو نظرنا إلى ذلك في ضوء ما يلي:

٦-١ ربما كانت هذه الصيغة – صيغة السكاكي - من أهم صيغ البلاغة العربية لأنها حافظت عليها حتى وصلت إلينا، كما كانت الصيغة العلمية التي حافظت علي هذا العلم، ومكنت بعض الباحثين من الربط بينها وبين الأسلوبيات اللسانية.

٦-٢ هذا برغم أن الضبط والتقنين لم يكن كل ما أراده السكاكي، ولم يحسن مخالفوه أخذهم عنه، لأن السكاكي كما أوضح في مقدمة المفتاح وفي متنه أن هذه العلوم (الصرف والنحو والبلاغة وما تعلق بها (من حد واستدراك وعروض وقافية) تتآزر في تفسير علم الأدب(١)، وذلك ما يمكن أن يوجه البلاغة متآزرة مع هذه العلوم لاستثمارها كمنظومة تحليلية منهجية في دراسة علم الأدب، لكن من جاءوا بعد السكاكي لم يلتفتوا إلى ذلك، وهو ما حاول د. سعد مصلوح استثماره في تقديم تصور بلاغي أسلوبي لساني للبلاغة العربية(٢).

---

(١) انظر: أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم ص٤/ ٥ شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر نبيل محمود الحلبي وشركاه خلفاء.

(٢) انظر د. سعد مصلوح: قراءة جديدة لتراثنا النقدي (مرجع سابق صـ٨٦١ وما بعدها.)

٦-٣ وكون البلاغة تشريعية تعليمية علمية معيارية إنما يختص هذا المنحي بطبيعة نشأتها كعلم من العلوم الإنسانية الخاصة باللغة العربية التي نشأت في القرون الهجرية الأولي، وهي في ذلك أيضا يمكن أن تناظر بلاغة اليونان التي ارتبطت بأرسطو وما نتج عن ذلك في البلاغة الأوروبية(١)، وهذا جانب علمي مهم، لكن هذا الجانب لا يمنع استثمارها في غير هذه الغايات، كتحليل النصوص وتقويمها بعد إفادتها من المناهج النقدية الحديثة ومناهج العلوم الإنسانية، دون أن نقصرها علي الغايات التشريعية والتعليمية والعلمية والمعيارية.

٦-٤ وقد حققت البلاغة العربية جوهرها في دراسات إعجاز القرآن الكريم وشروح الحديث النبوي الشريف، وتعاملاتها مع النصوص الشعرية والنثرية في كثير من كتب التراث التي لم تؤخذ في الاعتبار عند النظر في البلاغة العربية وتطورها مثل: مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت٢٠٨هـ)، وعيار الشعر لابن طباطبا (ت٣٢٢هـ)، وإعجاز القرآن للباقلاني (ت ٤٠٣هـ) وغيرهم.

٧- وتتضمن الأسلوبية أيضاً بعض المبادئ التي تتصل بفكرة المعيارية والتشريع والتعليم كالعدول والانحراف والاختيار.

---

(١) انظر مدخل إلى الألسنية: تأليف بول فاير، وكريستيان بايلون، ترجمة طلال وهبة – المركز الثقافي العربي – بيروت – ط١ – سنة ١٩٩٢ – صـ٢٢٧.

٨- وهناك من يري أن البلاغة لا زمانية، لكن الأسلوبيات اللسانية تبحث ظواهرها بحثا تزامنيا Synchronic أو تعاقبيا diachronic، وبذلك فهي أقدر علي خدمة مجالات كثيرة من الدرس الأدبي كالنقد وتاريخ الأدب⁽¹⁾.

والبلاغة أيضاً يمكن أن تقوم بشيء من ذلك إذا ما وجهت لتحقق فنونها هذه الدراسة التزامنية أو التعاقبية في تناول النصوص المختلفة ومستوياتها التعبيرية، ومراعاة الخصائص والسمات الخاصة بكل جنس من أجناس الأدب، وعلومه المهم أن نعتبر البلاغة بفنونها وسائل تعبيرية يمكن توظيفها لتحقيق الدراسة الأسلوبية وإقامة التحليل البلاغي الكاشف، كما نستعين بالبعد اللساني، وهكذا يمكن أن نتجاوز في الدرس البلاغي كثيراً مما وصفت به البلاغة من الطابع التفتيتي وتجزيء الظاهرة الواحدة، ونحقق لها فاعلية المنظومة التحليلية في الفحص، عندما يربط الفاحص للنص بين ظواهرها في التحليل والفحص، كاشفاً عن فاعليتها في البناء وإقامته⁽²⁾، وما يمكن أن تقدمه فنونها المختلفة في دعم النظرة الكلية للنص ومستويات تحليله.

وهكذا يمكن أن يتصل الاختلاف بالائتلاف ليصبح هذان العلمان البلاغة والأسلوبية من العلوم الإنسانية المتعاونة التي تتآزر في تحليل

---

(١) - انظر المرجع السابق نفسه صـ٨٥٩.

(٢) انظر السابق نفسه، صـ٨٦٠، صـ٨٦١.

النصوص والكشف عن قيمتها الفنية والفكرية، ويحل الائتلاف محل الاختلاف والتعاون محل التباين، وقد تعددت وتباينت تناولات كثير من المهتمين بهذه القضية كما سيتضح.

أثر البلاغة في الدراسات الأسلوبية:

منذ ستينيات القرن العشرين، إلى اليوم، تعددت الدراسات الأسلوبية التي يحاول أصحابها استثمار البلاغة فيها، من هؤلاء رومان جاكبسون ثم رولان بارت(١)، وذلك بالنسبة لبلاغة أرسطو والبلاغة الغربية بصفة عامة، عندما توظف بعض عناصرهما أو يتم توجيههما، في ضوء اللسانيات اليوم لتشكيل الرؤية الكلية للنص، ويبدو أن الطريقة نفسها قد حاولها بعض المفكرين الذين يهتمون بالدراسات الأسلوبية لدينا، سواء بمناقشة قضايا البلاغة والأسلوبية والعلاقة بينهما، أو محاولتهم تحديد مستويات التحليل الأسلوبي للنصوص: الصوتي واللفظي والتركيبي والتصويري والنحوي والدلالي والإيقاعي وغيرها، وسواء قاس المفكرون العرب الدراسات البلاغية على الأسلوبية الغربية في ذلك أو لم يقيسوها فإن هناك قضية مهمة يجب أن يلتفت إليها الباحثون، وهي الارتباط بين القرآن الكريم واللغة العربية، فالله قد أنزله "بلسان عربي مبين"، وكان للبلاغة العربية أثر عظيم

---

(١) انظر: رولان بارت، قراءة لبلاغتنا القديمة، ترجمة عمر أوكان، نشر إفريقيا الشرق، عام ١٩٤٤م. وكذلك انظر د.ميجان الرويلي ود. سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ط٥، عام ٢٠٠٧م، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، ص٧٣

في تشكيل دراسات الإعجاز للقرآن الكريم، ومن ثم فإن هناك بعداً عقدياً يجب الحفاظ عليه في هذا الشأن، يرتبط بالبلاغة العربية والحفاظ على أصولها الملائمة من أجل إثبات فكرة الإعجاز البياني للقرآن الكريم، خاصة وهذه الصلة بين اللغة العربية والقرآن الكريم لم تتحقق لأي كتاب سماوي آخر غير القرآن الكريم كما سبق أن أوضحت.

من ثم يجب أن نعيد النظر -بغية التصحيح- في وجهة من يرى أن الأسلوبية قد تولدت من البلاغة، وبناء على ذلك فهي قد ماتت ليحل محلها هذا الوليد، فهو وريثها، وهذه سنة الحياة، أو أن الأسلوبية بديل للبلاغة في عصر البدائل بعد أن تعنست وأصيبت بالعقم(١)، من ثم يرون أن الأسلوبية امتداد للبلاغة، ونفي لها قياساً للبلاغة العربية على البلاغة الأوروبية، لكنهم بذلك يتجاهلون هذا الفارق المهم الذي أشرت إليه سابقاً، وهو ما تنفرد به البلاغة العربية دون غيرها من البلاغات الأخرى بالإضافة إلى الملابسات الأخرى التي تعتد بالبلاغة العربية قسماً مهماً في تراثنا.

هذا بالإضافة إلى إمكانية تحقيق فاعليتها في تحليل النصوص وقراءتها كما سيتضح:

---

(١) انظر: د. عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس عام ١٩٨٢م، ص٥٢، وكذلك انظر د. صلاح فضل، علم الأسلوب، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، عام ١٩٨٥م، التقديم، ص٣.

ومع ذلك فهناك في أوروبا من يحاولون تجديد بلاغتهم، وتكوين المدارس البلاغية الحديثة التي تهتم بهذه البلاغة الجديدة، كما حدث في فرانكفورت بألمانيا، وبلجيكا، ولندن وغيرها. بل إن في أمريكا نفسها تعقد ندوات للبلاغة والأسلوبية بغية تحقيق هذا التطوير(١).

ولا يعني هذا التوجه لدي أن أعطي البلاغة أكثر من حجمها، أو أزعم أنها يمكن أن تستغني عن غيرها من العلوم الإنسانية والمناهج النقدية والدراسات اللغوية الحديثة، بل لابد من اتصالها بكل ذلك حتى تأخذ مكانتها العصرية، وتصبح فاعلة في تحليل النصوص وكشف مستوياتها التعبيرية.

بالنسبة للغرب، فإن المتتبع لأثر البلاغة في الدراسات الأسلوبية سيجد أن رومان جاكبسون في دراساته البنيوية والأسلوبية لم يحتفظ من كل البلاغة إلا بوسيلتين تعبيريتين، أو وجهين هما الاستعارة والكناية(٢)، وذلك لتفعيل محوري الرسالة عند دوسيسير، الذي رأى أن الرسالة تقوم على البعدين الأفقي والرأسي، وقد استثمر رومان جاكبسون هذين البعدين في ضوء التمييز البلاغي بين الاستعارة والكناية، على أساس أن الأولى تقوم

---

(١) انظر: علم الأسلوب (مرجع سابق)، ص١٣٧، ١٣٨.

(٢) انظر رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، (مرجع سابق)، ص٤١، وكذلك انظر: د. صلاح فاضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عام ١٩٩٢م، ص٢١، وكذلك انظر د. شكري عياد، بين الفلسفة والنقد، منشورات أصدقاء الكتاب، عام ١٩٩٠، ص١٠١.

على الإبدال والإزاحة، اعتماداً على المشابهة والمشاكلة والقياس، والثانية (الكناية) تقوم على أساس المجاورة والتداعي، وقد رأى جاكبسون أيضاً أن هذا التمييز مفيد على مستوى الجزء والكل، وأنماط صيغة الخطاب عموماً⁽¹⁾.

وهكذا تصبح في نظره علاقات المشابهة أو المجاورة وسيلة لتحديد الأسلوب الأدبي حسب اعتماد الأديب على أيهما فيما يكتب، كما يمكن استثمار ذلك في تحليل النصوص كشفاً عن مستويات المعنى.

وبالنسبة للبلاغة العربية فقد تعددت مثل هذه المحاولات، وتباينت في مستويات كشفها عن هذا الاتصال والإفادة من البلاغة العربية وربما كانت محاولة د.محمد عبد المطلب في كتابه "البلاغة والأسلوبية"⁽²⁾ من أولى هذه المحاولات، لكنها لم يتصل فيها هذان الجانبان، فظلت البلاغة ماثلة في الكتاب، كما وقفت الأسلوبية أمامها، دون بحث في العلاقة بينهما، أو كيفية تحقيق الاتصال الوثيق بينهما، وإن كانت جهود د. محمد عبد المطلب التطبيقية في هذين المجالين قد ظهرت على نحو ما فيما كتب من بحوث في

---

(١) سعد أبو الرضا: في البنية والدلالة رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، ط٤، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، الأسكندرية، منشأة المعارف، ص٢١٧.

(٢) انظر د. محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرة العامة للكتاب، القاهرة، عام ١٩٨٤م.

الشعر والرواية بعد ذلك مثل: "جدلية الإفراد والتركيب"، و"التكوين البديعي في شعر الحداثة"، و"بلاغة السرد في الأدب النسائي".

وهناك محاولات أخرى كانت أكثر اتصالاً ببحث قضية الاتصال نفسه بين البلاغة والأسلوبية، وأبعاده وتجلي فاعلية البلاغة العربية في هذا المجال، فنجد د. تمام حسان في كتابه "الأصول" يعتبر أن السكاكي (ت ٦٢٦هـ) قد أثرت ثقافته في عرضه للبلاغة، فأسرف في الضبط والتقعيد والبعد عن التذوق، مستهدفاً بذلك تيسير الاستيعاب، لكنه قتل ملكة التذوق⁽¹⁾، برغم أن يسر الاستيعاب كان من أسباب متابعة المتأخرين له، ومن ثم كثرت الشروح والتلخيصات عند من جاءوا بعده كالقزويني في شرح التلخيص والإيضاح وغيره⁽²⁾.

لكن د. تمام حسان نفسه في هذا الكتاب، وهو يستكمل رؤيته له، يقدم جوانب أخرى تعلي من قيمة كتاب السكاكي مفتاح العلوم، كاعتماده على الذوق كما في ص١١٢، ١١٣، ١١٤ وغيرها.

---

(١) الناظر في كتاب "مفتاح العلوم" قد يشعر فعلاً بصعوبته نتيجة تقنينه، لكن الناظر في الوقت نفسه سيجد السكاكي يعول على الذوق والوجدان، انظر مثلاً مفتاح العلوم من صـ١١٢: ١١٤ وغيرها، ط شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بمصر (نبيل محمود الحلبي وشركاه خلفاء).

(٢) انظر د. تمام حسان، الأصول: دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، عام ١٩٨٢م، ص٣١٠.

ويرى د. تمام أن ما قبل ذلك في تاريخ البلاغة كان أقرب إلى النقد الأدبي، وهو ما كان عند الجاحظ (ت عام ٢٥٥هـ)، وابن المعتز (ت عام ٢٩٦هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت.عام ٤٧١هـ)، على تباين مستوى ذلك بينهم، ونظرة هؤلاء إلى البلاغة تدور حول الأصول دون أن تقعد للفروع، وهي أقرب إلى الذوق، وهذه المرحلة من تاريخ البلاغة هي ما يصفها د. تمام حسان بالمعرفة دون الصناعة(١).

أما الفترة الأخرى التي يؤرخ لها بقدامة بن جعفر (ت عام ٣٣٧هـ) ثم السكاكي، فقد كانت أقرب إلى ما يعرف في اللغويات الحديثة باسم "الأسلوبيات"Stylistics(٢)، والمقصود بها فرع من اللسانيات (أي الدراسة اللغوية الحديثة) يقوم على تحليل الأسلوب، الذي من أهم معالمه (اختيار استعمال إحدى الطرق الممكنة للتعبير حين يكون كل هذه الطرق صالحاً لأداء المعنى)(٣).

كما رأى د. تمام حسان في هذا اللون من المعرفة بالبلاغة عدة خواص من العلم المضبوط منها: الموضوعية بمظهريها الاستقراء الناقص وإمكانية تحقيق النتائج، والشمول المتمثل في الحتمية وتجريد الثوابت، والتماسك الذي يأتي عن التصنيف وعدم التناقض، والاقتصاد الذي يتمثل في

---

(١) انظر الأصول، صـ٣١٣.

(٢) انظر السابق نفسه، صـ٣١١.

(٣) انظر السابق نفسه، صـ ٣١٢.

الاستغناء بالكلام في الأصناف عن الكلام في المفردات، كما في التقعيد(١) وهي خواص قريبة من خواص البنية كما رآها جان بياجيه(٢). وهذا مما يجعل الصلات بين البلاغة والأسلوبية أقرب إلى الائتلاف منها إلى الاختلاف.

وربما كان هذا التوجه لدى د. تمام حسان مما هدى د. سعد مصلوح بعد ذلك إلى تقديم تقويم لساني للبلاغة العربية في كتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي كما سيأتي.

وقريب مما رآه الدكتور تمام حسان ما يراه د. شكري عياد وهو يبتغي وضع البلاغة العربية على خريطة الدراسات الأسلوبية، لا ليثبت الاتفاق أو الاختلاف بينهما، ولكن ليبين الاتصال بينهما، فكل منهما علم لديه، وكما حدد معالم الأسلوب واتجاهات بحثه، يريد أن يحدد معالم البلاغة العربية، بفحص عناصرها والعلاقات بين أجزائها(٣)، وهذا ضرب من التفكير البنيوي الذي يعتمده د. شكري عياد منهجاً للبحث.

---

(١) انظر السابق نفسه، صـ٣١٥.

(٢) انظر جان بياجيه: البنيوية، ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبروي، منشورات، بيروت، ط٤، عام ١٩٨٥م، صـ٨.

(٣) انظر د. شاري عياد: اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، عام ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ط١، صـ٢١٣.

وهو يرى أن كتاب "مفتاح العلوم" يقدم أكمل بناء بلاغي عرفته الثقافة العربية، وأتيح له أن يعمر حتى عصرنا هذا، وقد ارتبط به تلخيص المفتاح وشروح التلخيص.

لكنه في الوقت الذي يؤكد على الارتباط الطبيعي بين شتى فروع المعرفة في العصر الواحد، ينفي أن ننتظر من السكاكي وبلاغة القرن السابع أن نضعها بجوار النقد الأدبي الحديث أو حتى علم الأسلوب الحديث، وإنما يجب أن نفهم البلاغة في حدود عصرها، وفي الوقت نفسه أن نقدر قيمتها كإنجاز علمي كما جاءت في كتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي(١).

وإذا كان د. تمام حسان ود. شوقي ضيف(٢) يريان أن السكاكي قد قتل الذوق بعلمية كتابه وانضباطه، فإن د. شكري عياد يرى أن الذوق كان من أهم مرجعيات فاعلية البلاغة في تعاملها مع الأدب معتمداً في ذلك على ما صرح به السكاكي نفسه من أن هذه الصناعة (أي علم البلاغة) مستندة إلى (تحكمات وضعية واعتبارات إلفية)، كما أضاف السكاكي نفسه في حديثه عن أحوال المسند "أن الاستيعاب الكامل للقوانين البلاغية"مستحيل(٣)،

---

(١) انظر السابق نفسه، صـ٢٢٠.

(٢) انظر د. شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط سنة ١٩٦٥، صـ٣١٣.

(٣) انظر اتجاهات البحث الأسلوبي، صـ٢٢٤.

وقد أشرت فيما سبق إلى نماذج من ذلك توضح اعتماد السكاكي على الذوق(١).

لكن د. شكري يقرر أيضاً أن السكاكي حاول الجمع بين المنهج الاستقرائي والمنهج القياسي في البلاغة، وإن كان الأول هو الغالب كما يظهر من حديثه عن علم المعاني(٢)، بالإضافة إلى حديثه عن البلاغة بصفة عامة، وأن طريق اكتساب الذوق هو خدمة علمي المعاني والبيان كما يقول(٣) السكاكي نفسه.

لكن د. شكري عياد يأخذ على تجربة السكاكي عدة مآخذ منها: تناقضه بين المثال والواقع، والمطلق والجزئي، بل يأخذ ذلك على الثقافة العربية كلها منطلقاً من البلاغة، فالسكاكي في نظره من الذين يرون أن البلاغة وقوانينها تتجه نحو مثال متعال فوق الزمن وهو لفظ القرآن الكريم(٤)، فطبيعي أن تكون بلاغته لا شخصية ولا زمانية، مع أنها تتضمن (كل مساحة اللغة العربية من المخاطبات العادية إلى لغة الوحي، والغرض من ذلك يسمونه عادة "الإفادة")(٥).

---

(١) انظر مفتاح العلوم، من صـ١١٢: ١١٤ مثلاً، وغير ذلك.

(٢) انظر اتجاهات البحث الأسلوبي، صـ٢٢٥، ٢٢٦ وانظر هذا البحث فيما سبق.
وكذلك انظر السكاكي: مفتاح العلوم، صـ٩١.

(٣) أنظر السابق نفسه، صـ٢٢٥، ٢٢٦.

(٤) انظر السابق نفسه، صـ٢٢٦، ٢٢٧.

(٥) السابق نفسه، والصفحتان نفسيهما.

لكنه يبين أن ذلك التناقض جدلي وليس منطقياً، لأن التناقض الجدلي في نظره قد يكون خلاقاً وقد يكون هداماً، ولن يكون كذلك إلا بإرادة بشرية بحيث يلتقي فيها البشري بالإلهي، ونحن لا نوافق على ذلك إلا أن يكون هذا الالتقاء في خضوع البشري للإلهي. أما التناقض المنطقي في هذه القضية فسر فساده أن إحدى القضيتين لا تكون أولى بالتصديق إلا لقرينة خارجية(١).

وبرغم ما يراه د. شكري عياد أيضاً من لا شخصية البلاغة، ولا زمانيتها، وعمومية غرض الإفادة، لكن هناك من يعتد بالبلاغة مستويات ما بين الإعجاز في القمة، حتى مستويات أقل، كالحاتمي في الرسالة الموضحة، وعبد القاهرة الجرجاني (ت٤٧١هـ) نفسه في الاستعارة المفيدة وغيرها.

وقد انتقد د. شكري عياد عدم تحديد الظواهر في البلاغة، وذلك مما يمس دقة المنهج وعدم انضباط قوانينها، ويضرب مثالاً بعدم تحديد البلاغيين موضوع علم البلاغة بالإفادة وما يتصل به من الاستحسان وغيره، مما جعلهم يرون أن الإفادة هي الأصل والاستحسان وغيره فرع عنها، من هنا فقد تداخلت مباحث علم المعاني مع مباحث الدلالة ومباحث النحو ومباحث المنطق، وهذان العلمان الأخيران كانا علمين مستقلين ممهدي الأصول، وبذلك فقد اشتدت وطأتهما على البلاغة،

---

(١) انظر السابق نفسه، صـ٢٢٦.

التي بقيت مزيجاً من علم الدلالة وعلم الأسلوب اللذين لم يوجدا في الثقافة العربية كعلمين مستقلين، مما ترتب عليه اختلاط هذين العلمين، فمالت البلاغة العربية مرة إلى جانب علم الدلالة ببحثها في الإفادة، ومرة أخرى إلى جانب علم الأسلوب الذي يدرس التأثيرات الوجدانية للاستعمالات اللغوية، وهي التي تستتبع الاستحسان وغيره، واقترن ذلك بتأثرها بالعلمين الراسخين المحددين النحو والمنطق، وقد جعل كلُّ ما سبق الظواهر البلاغية لا تحدد تحديداً دقيقاً، كما في مسألة خلاف مقتضى الظاهر ومسألة الوضوح(١).

ولقد رأى د. شكري عياد في مسألة خلاف مقتضي الظاهر أنها يمكن أن تكون موجودة في كثير من فنون البلاغة دون ضابط محدد، وكذلك مسألة الوضوح التي ينقضها فكرة العدول عن التصريح في البلاغة، ويصار إليها كثيراً، وإن أورث تطويلاً(٢).

بل إن د. شكري عياد يرى أن "هذين المبدأين يتطابقان، وهما مسألة خلاف مقتضى الظاهر ومسألة الوضوح، بمعنى أنهما يعبران عن ظاهرة واحدة، شعر بها السكالي وأتباعه وإن كانوا قد اعتمدوا على الأول في دلالة التراكيب واعتمدوا نقيض الثاني في دلالة المفردات"(٣).

---

(١) انظر السابق نفسه، صـ٢٣٣.

(٢) انظر السابق نفسه، صـ٢٣٣، ٢٣٦.

(٣) السابق نفسه، والصفحتين نفسيهما.

وقد انتقد د. شكري عياد أيضاً فكرة متعارف الأوساط لدى السكاكي مقياساً لتعيين المقصود بالإيجاز والإطناب، لأن ذلك ليس تحديداً دقيقاً، وقد انتقده قبل د. شكري، القزويني أيضاً على أساس أنه "رد إلى جهالة" ورجح فكرة أصل المعنى(١).

ويلاحظ أن الدكتور شكري عياد كان مهموما جداً بفكرة الاتصال بين التراث البلاغي والدراسات النقدية الحديثة(٢) وقد تجلى ذلك لديه في كل كتبه تقريباً، خاصة ثلاثة منها صدرت متتابعة تقريباً هي: "اتجاهات البحث الأسلوبي" عام ١٩٨٥م، و"دائرة الإبداع"، "مقدمة في أصول النقد" عام ١٩٨٧م، و"اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي" عام ١٩٨٨م، وبرغم أن فكرة الاتصال بين البلاغة وعلم الأسلوب كان موضوعاً مستقلاً في أول هذه الكتب، فإن الكتابين الآخرين قد امتزج فيهما بصفة عامة الاتصال بين البلاغة والأسلوبية وأهمية الدراسات اللغوية الحديثة في دعم هذا الاتصال، حتى إنه وصل في كتابه الثالث مما سبق إلى أن وضع عنواناً عليه هو: "مبادئ علم الأسلوب العربي"، وليس هناك مبادئ محددة فيه ولكنها ملاحظاته وتوجيهاته في استثمار قيم البلاغة العربية

---

(١) انظر السابق نفسه، صـ٢٣٠.

(٢) اذكر أن د. شكري كان في زيارة إلى جامعة الكويت عام ١٩٨٨م، وفي محاضرة عامة سألته: هل كلما جد في الغرب جديد نلهث وراءه، أم أنه لابد من أن نهتم بمراجعة تراثنا ثم نفيد من هذه المتغيرات، حتى نستكمل أصولنا ومعارفنا ونجعلها فاعلة، وقد ظهرت عليه أمارات الحيرة، لكنه وافقني على ما قلت، وزكاه.

والدراسات النقدية الحديثة، وأثر الدراسات اللغوية في تشكيل رؤية بلاغية نقدية أسلوبية لمواجهة النص الأدبي، وربما كان هذا ما جعله يختم ثالث الكتب المشار إليها سابقاً بتحليل نص "الحمى" للمتنبي تحليلاً بلاغياً أسلوبياً نقدياً.

وفي هذا العام ١٩٨٨م ظهرت دراسة د. سعد مصلوح وتعد هذه المحاولة وهي بعنوان "مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية"(١) من المحاولات التي نصبت نفسها لتحقيق الاتصال بين هذين العلمين: البلاغة والأسلوبية، وتمثل ذلك في وضعه حاشية عصرية على "كتاب مفتاح العلوم"، لأبي يعقوب السكاكي كشفت عن تصوره لاستثمار البلاغة العربية في تحقيق تجلي مستويات تحليل النصوص أسلوبياً.

فقد اعتبر "كتاب مفتاح العلوم" يتألف من صيغتين، صيغة كبرى تتمثل فيما رآه السكاكي نفسه أن علوم الصرف، والنحو، والبلاغة ومتعلقاتها من علمي الحد والاستدلال وعلم الشعر: العروض والقافية منظومة منهجية تحليلية لدراسة "علم الأدب"، وهذا اعتماداً على ما قرره السكاكي نفسه في المقدمة كما أشرت، أما الصيغة الصغرى فهي القسم الثالث من كتاب المفتاح وتتألف من علم المعاني والبيان والبديع وما تعلق

---

(١) انظر د. سعد مصلوح، قراءة جديدة لتراثنا النقدي، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ج٢ من ص٨١٩ إلى ص٨٦٧، (مرجع سابق).

بها من علم الحد والاستدلال، والعروض والقافية، والاتصال بين هذه الأقسام الثلاثة وتآزرها في الكتاب، هو ما اعتد به د. سعد مصلوح مبحثاً يعالج الطاقات الأسلوبية التعبيرية الكامنة والمحتملة في اللغة العربية، وهي في الوقت نفسه المادة الغفل التي يعمل فيها المنشئ بالتشكيل ليصوغ النص تبعاً لقدراته واختياراته والمحددات التعاملية التي تحكم إنتاج النص واستقباله.. وباعتبار ما سبق يمكن الانطلاق من صيغتي السكاكي وتكميلهما لتمييز مستويات ثلاثة تقع متوازية ومترابطة في المعالجة اللسانية الأسلوبية⁽¹⁾، وهي المستوى الأول: لسانيات النص، وهو مجال أسلوبيات اللغة التي تتفرع إلى الصوتيات والصرف والنحو، والمستوى الثاني لسانيات النص الأدبي: العروض والقوافي، والنظم الأدبي (علم المعاني)، والدلاليات الأدبية (البيان) والتعاملات الأدبية (مقتضى الحال)، والمستوى الثالث لسانيات نص أدبي، وهو مجال الأسلوبيات المتعينة ويتضمن تحليلات متفرقة لشواهد نصية لاسيما من القرآن الكريم.

وفي ضوء ما سبق أخذ د. سعد مصلوح يستصفي كثيراً من فنون البلاغة ليملأ أقسام الجدول الذي أنشأه لهذه المستويات الثلاثة، ويتضح أن كثيراً من فنون البلاغة قد أخذت مكانها في هذا التصور، وقد استبعد مما

---

(١) انظر السابق، ص٨٦٢، ٨٦٣.

سبق فكرة لسانيات النص، لأنها ليست مطروحة حتى الآن فضلاً عن أن تطرح في القديم(١). وهو حريص على الإفادة فيما يتعلق بالتعاملات الأدبية من اللسانيات النفسانية والاجتماعية.

وقد فسر فكرة مقتضى الحال عند السكاكي بتفاوت الكلام بحسب مقاصده، وبحسب المخاطب، وبحسب سياق المقال.

كما يرى أن الفنون التي قام السكاكي بجمعها وتحديدها ووصفها والاستشهاد لها هي خصائص أسلوبية بالقوة، وقابلة لأن تكون مادة للتشكيل في النص الأدبي، ويمكن أن نشكل منها سلماً تحليلياً يعتمد عليه في الفحص الأسلوبي للنصوص وتشخيصها، مع الإفادة من الصيغة الكبرى التي أشار إليها السكاكي في علم الأدب(٢).

وبالإفادة من كل ما سبق يحث د. سعد مصلوح على ما يمكن أن نستشرفه متمثلاً في أمرين:

أولهما: الانتقال بالتحليل اللساني من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص.

وثانيهما: توثيق الاتصال بين اللسانيات والأدب(٣).

---

(١) انظر السابق نفسه، ص٨٦٤.

(٢) انظر السابق نفسه، ص٨٦٧.

(٣) انظر السابق نفسه، والصفحة نفسها.

وبرغم إخلاص د. سعد مصلوح للتراث بصفة عامة وللبلاغة بصفة خاصة وحرصه على الصالح منهما، لكن نموذجه اللغوي الذي وظف البلاغة فيه كما قرأها عند السكاكي بحاجة إلى النموذج التطبيقي الذي يمكن أن تتجلى فيه فاعلية هذا التشكيل.

كما أن ذوبان البلاغة في الأسلوبية على هذا النحو غبن للبلاغة التي أبدى حرصه عليها، وفرقها في مستويات تحليله للنص داخل عباءة اللسانيات والأسلوبية، ولا ضير في ذلك بشرط أن يكون تحت عنوان "التحليل البلاغي الأسلوبي للنص" ويتجلى فيه تآزر البلاغة والأسلوبية والنقد الأدبي، ليصبح ما بين البلاغة والأسلوبية من مباينات واختلافات ائتلافات معرفية إنسانية.

خاتمة

لعله مما يتصل بمنهجية هذا البحث، أن أختمه ببعض النتائج وهي أقرب إلى الاقتراحات:

أعتقد أننا يجب أن نحقق بفنون البلاغة في مجال تحليل النصوص في الأجناس الأدبية المختلفة شعراً وقصة ومسرحية ومقالة، ما حققه السلف. اعتماداً على علوم البلاغة. في مجال الإعجاز القرآني.

ومن ثم نعتبر فنون البلاغة في علومها الثلاثة وسائل تعبيرية مستبصرين في ذلك بتشكيلاتها اللغوية، وفاعليتها في بناء النصوص الأدبية المختلفة، وتآزرها في تجلي القيمة الجمالية في الأشكال المتغيرة للأعمال الأدبية.

وحري بنا أن نتصل خلال ذلك بالعلوم الإنسانية وأثرها في اللغة، وأثر اللغة فيها وذلك هو الجانب اللساني المهم.

ولتكن فكرة المستويات شكلاً من أشكال تجلي الربط بين البلاغة وبين العلوم الإنسانية، أو أي نظام يمكن أن يتجلى بناء على منهجية في التحليل والقراءة توظف البلاغة فيه، وقد حاولت شيئاً من ذلك في تحليل بعض الشعر والنثر في مكان أخر(١)، ولعل ذلك يستثير من يتعاون في هذا المجال، فنحن جميعاً إنما نبتغي خدمة الفن والعلم لإثراء لغتنا وأدبنا وبلاغتنا وتراثنا بصفة عامة.

---

(١) انظر لكاتب هذا البحث: في البنية والدلالة رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، ط٤، عام ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، القاهرة. وكذلك: التراث والمتغيرات: البلاغة العربية نموذجاً، عام ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، القاهرة.